حال الكتب و المكتبات في الأندلس

استقر الاسلام في الاندلس بنهاية عام ٩٦ هـ ، و كانت النهضة العلمية في أشدّها في الفترة ما بين عامي ١٣٨ – ٤٢٠ هـ ، قبيل زوال الدولة الإسلامية في الأندلس .

و ظهرت صناعة الوراقة في الأندلس ، و يدخل تحت هذا المسمى : الورّاق ، و صانع الورق ، المعلم ، الناسخ ، المراجع ، المجلد . و كان ظهورها بعد تراجع ورق البردي الذي كان استعماله سائداً ، فأشار لصناعة الكاغد الفضل بن يحيى ، و كانت شاطبة تنتج أفضل الورق .

و بظهور هذه الصناعة ، أخرجت النسّاخ ، فكان الناسخ ينسخ مائة صفحة يومياً ، و استأثر النساء بكتابة المصاحف ، فكان المصحف يخرج في اسبوعين بمقدار ٤٣ صفحة يومياً .

ثم تقدمت الوراقة حتى أصبحت صناعة لها نقابة ، و لها شيخ الوراقين ، له مكانة مرموقة في المجتمع . أسس بعدها لمزايدات الكتب ، و ظهر الدلالون و خبراء الكتب مع ازدياد الطلب ، و انتشرت حوانيت الوراقين لبيع الكتب . و كانت المزايدات في حلقات تقام أشبه ما يكون اليوم بمعارض الكتب ، و كانت مسرحاً للمطارحات العلمية و الثقافية و الأدبية .

كيف كانت طريقة نشر الكتب ؟

كان المؤلف يتجه إلى اتجاهين في التأليف :

١ .مجالس الإملاء : من حفظه لطلابه ، ثم يكتبون ما يملي عليهم ، ثم يعرضونها عليه ، فيجيز لهم ما نقلوه عنه ، و تكون هذه النسخة شرعية مقروءة على المؤلف ، و يختمها بإجازته .

٢ .التأليف الصرف : و هو أن يقوم المؤلف بجمع مصادره و البحث و التدقيق و كتابة مؤلفه .

و يأتي دور النساخ بخاصة في الوجه الأول من التأليف ، فكان الناسخ بعد فراغه من الكتاب يراجع الكتاب المنسوخ ، و هنا ظهرت فئة المراجعين الذين كانوا من كبار العلماء و الأدباء . فيكون نسخ الكتاب

بطريقة التلاوة و الإملاء كما في مجالس الإملاء ، و غالباً ما يكون من الذاكرة ، و هذا عمل تلاميذ المؤلف . ثم يجمع المؤلف المستمعين لقراءة مراجعة الكتاب بنفس الأسلوب الذي في الإملاء . ثم يُقرأ على المؤلف ثلاث مرات من قِبل النسّاخ بحضور المؤلف ، و هنا تكون التصحيحات و التعديلات على المؤلَّف . ثم إذا انتهى المجلس أجاز به المؤلف ، فكانت النسخة صحيحة و شرعية . و كان يضع إجازته على الكتب التي تخرج عن النساخ بهذه الصورة .

و هناك ظاهرة أخرى ، و هي قراءة أوائل المطبوعات (النسخ) على معلّم مشهور ؛ لطبع نسخ أخرى عنها . و عندما يضع المراجع علامة الموافقة عليها ، فهذه علامة على قوة النسخة الجديدة ، و هي درجة أقل من درجة إجازة المؤلف لكتابه . و كان محمد بن مسعود الأندلسي (٥٤٣ هـ) يُحدّث عن نفسه أنه كان الرجل الذي كان الناس يرتحلون إليه لقرأوا عليه كتاب سيبويه .

و كانت آخر مراحل انتاج الكتب هي : مرحلة التجليد أو التغليف ، في ظل أن التجليد أعلم من التغليف ، فيشمل الزخرفة و التذهيب و التجليد بالجلود . و كانت غرناطة أجود المدن في التجليد .

من المؤلفين في العصر الأندلسي

أحمد بن أبان ، صاحب شرطة قرطبة : ألف كتاب (السماء و العالم) في مائة مجلد .

المظفر بن الأفطس ، أحد ملوك الطوائف : ألف كتاب (المظفري) في خمسين مجلداً .

و كان هناك من يؤلف بأسماء الحكام ؛ ليظفروا بالحظوة ، أو الهدايا و العطايا . بينما نجد أن من المؤلفين من هم علماء فلا يقبلون بالكتابة لأجل المال أو الجاه ، بل إن بعضهم لا يقبل الدخول إلى بلاط الملك ، من تلك الأمثلة على الطرفين :

الحصري ، ألف للمعتمد بن عباد كتاب (المستحسن من الأشعار) . و أعطاه عليه جملة من المال .

صاعد بن الحسن بن عيسى ، المعروف بأبي العلاء . ألف للمنصور بن أبي عامر ، عندما اغتصب الحكم ، ألف له كتابين : الأول كتاب (الفصوص في الآداب و الأشعار و الأخبار) سنة ٣٨٥ هـ على نحو ما فعله أبو علي القالي في (الأمالي) . فأجازه المنصور بخمسة آلاف دينار دفعةً . و الثاني كتاب (الحواس بن قعطل المذحجي مع ابنة عمه عفراء) ، و شغف بهذا الكتاب المنصور ، و كان يقرأه كل ليلة .

و ابن سيدة ٤٥٨ هـ ، ألف كتاب (المحكم) و أهداه إلى الحبيش بن عبدالله العامري حاكم (دانية) .

في المقابل أن من العلماء من لم ينزل إلى هذا المستوى من التقليل من شأن العلم ، فلم يقبلوا بما فعله غيرهم لأجل مال أو جاه ، و الذي يُسلّي النفس أن ما يذله أولئك إنما هو في مجال الأدب و الأخبار ، و ليس في العلوم الشرعية . من ذلك :

ابن القياني ، تمام بن غالب بن عمر اللغوي ، ألف كتاباً في اللغة لا نظير له ، فلما بلغ خبره إلى الأمير أبي الحبيش العامري أرسلَ إلى غالب ألف دينار أندلسية على أن يزيد في ترجمته ، أي : ترجمة أبي الحبيش ، فرد أبو غالب الدنانير ، و أَبَى ذلك ، و قال : و الله لو بذلت لي الدنيا على ذلك ما فعلت ، و لا استجزت الكذب ، فإني لم أجمعه له خاصة ، و لكن لكل طالب عامة .

أسعار الكتب

من المناسب أن نذكر القيمة المقاربة للكتب في زمن الدولة الإسلامية في الأندلس ، حتى نعرف قيمة المبالغة في أسعار بعض الكتب التي قد تزيد قيمتها الشرائية بسبب شهرة المؤلف ، أو نفاسة الخط و التذهيب ، أو أن يكون فيه اهداء لحاكم أو خليفة ، أو لندرة الكتاب . فقد كان الكتاب في الغالب لا يجاوز الدينار إلى دينارين على الأكثر .

و وجدت المزايدات في أسعار الكتب للأسباب المذكورة ، و لوجود حلقات المزايدات التي تعرض الكتب ، و لوجود الموسرين ممن يزايد في الكتاب ، بينما لا يعرف قيمته . و نورد أمثلة لذلك :

نما إلى علم الحكم الثاني المستنصر ٣٥٠ – ٣٦٦ هـ أن أبا الفرج الأصفهاني يؤلف كتاباً لم يُسبق إليه ، و هو كتاب (الأغاني) فأرسل إليه بألف دينار من الذهب ، فبعث له أبو الفرج بنسخة من قبل أن يخرج كتابه في العراق . و كذلك فعل مع أبي بكر الأبهري المالكي في شرحه لمختصر ابن عبد الحكم .

بلغ ثمن كتاب تاريخ الطبري مائة دينار ، و كتاب جمهرة ابن دريد ستين ديناراً . و هذه الأسعار مبالغ فيها كثيراً ؛ للأسباب التي أوردناها .

قال ابن النديم : قال أبو بكر بن دريد : وقع بالبصرة كتاب (العين) سنة ٢٤٨ هـ ، قدم به وراق من خراسان ، و كان في ثمانية و أربعين جزءاً ، فباعه بخمسين ديناراً . بينما أن ياقوت الحموي يذكر عن نفسه : لم يكن يفارق منزلي مائتي مجلد أو أكثر ، قيمتها مائتي دينار .

و مع هذا الغلاء ، فقد كان للوراقين مبادرة حسنة في نسخ الكتب و نشرها و بيعها للناس متوسطي الحال ، و هي في الدرجة الثانية كما سبق و أشرنا ، بخلاف النسخ الأولى و التي بإجازة المؤلف . و كانوا يقيمون معارض الكتب ، و التي يوجد فيها نسبة خصم تشجيعاً لمقتني الكتب و ترويجاً للسلعة ، و هذا من الطريف إذ أن الخصم متداول في زمانهم .

ومن الطرائف المذكورة في المزايدات في الكتب ما أورده الكتبي الكبير والجمّاعة أبو يحيى الحضرمي، فيقول : أقمت مرة بقرطبة و لازمت سوق كتبها مدة ؛ أترقب فيه وقوع كتاب لي بطلبه اعتناء، إلى أن وقع، وهو بخط فصيح، وتفسير مليح، ففرحت به أشد الفرح، فجعلت أزيد في ثمنه، فيرجع إلي المنادي بالزيادة عليّ إلى أن بلغ فوق حده، فقلت له: يا هذا أرني من يزيد في هذا الكتاب، حتى بَلّغَه ما لا يساوي؟ قال: فأراني شخصاً عليه لباس الرئاسة، فدنوت منه، وقلت له: أعز الله سيدنا الفقيه، إن كان لك غرض في هذا الكتاب

تركته لك، فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده، قال: فقال لي: لست بفقيه، ولا أدري ما فيه، ولكني أقمت خزانة كتب، واحتفلت فيها لأتجمل بها بين أعيان البلد، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب، فلما رأيت حسن الخط، وجودة التجليد استحسنته، ولم أبالي بما أزيد فيه، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير"، قال الحضرمي: "فأحرجني، وحملني إلى أن قلت له: نعم لا يكون الرزق كثيراً إلى عند مثلك، يُعطى الجوز من لا له أسنان، وأنا الذي أعلم ما في هذا الكتاب، وأطلب الانتفاع به يكون الرزق عندي قليلاً، وتحول قلة ما بيدي بيني وبينه .

مكتبات الأندلس و المغرب

كان في الأندلس سبعين مكتبة عامة ، و الكثير من المكتبات الخاصة ، و ذلك بحسب دائرة معارف القرن العشرين و مجلة المقتضب .

و بعد أن استقرت الأندلس في حكم عبد الرحمن الداخل سنة ١٧٢ هـ اهتم بالعلم و العلماء و المكتبات ، حتى كانت له مكتبة عظيمة في قصره ، كان يعمل في مكتبة القصر دون توقف، أمهر المجلدين في الأندلس، إلى جانب آخرين جيء بهم من صقلية وبغداد، ومعهم جمهرة من الرسامين والمزوقين والمنمقين، فكانوا يزخرفون الكتب بالزخارف الجميلة، بعد أن نسخها أدق الخطاطين لتقديمها إلى لجنة من كبار العلماء تقوم بمعارضتها وتصحيحها، وتدفع لهم الدولة مرتباتهم في سخاء. خلفه بعد ذلك ابنه محمد الذي توفي مبكراً ، ثم ابنه الحكم الذي ورث ما خلفوه من الكتب .

فمن المكتبات الخاصة :

مكتبة القاضي أبي مطرف عبد الرحمن بن فطيس ٤٠٢ هـ :

قال ابن بشكوال : كان حسن الخط ، و له ستة وراقين ينسخون دائماً ، و كان متى علم بكتاب حسن طلبه للابتياع و بالغ في الثمن ، و إلا انتسخ منه . و بلغ كثرة كتبه أن أهل قرطبة اجتمعوا عاماً كاملاً في المسجد لبيع كتبه ، و بلغ ثمن بيعها أربعين ألف دينار .

و من النساء ، عائشة بنت أحمد بن محمد بن قارم ، ٤٠٠ هـ :

قال ابن بشكوال : كانت حسنة الخط ، تكتب المصاحف و الدفاتر ، و تجمع الكتب ، و تعنى بالعلم ، و لها خزانة كبيرة حسنة .

الخزانة المنصورية في المغرب لأحمد المنصور الذهبي :

و كانت زمن الدولة السعدية بالمغرب الأقصى ٩١٥-١٠١٢هـ ، و كان شغوفاً بالعلم و دراسة الكتب ، و كان يدعو العلماء من الأندلس و المغرب ، لا سيما بعد سطوة الإسبان على الأندلس مما أدى إلى خروج علمائها بكتبهم و مخطوطاتهم إلى بلاد المغرب ، و كانت الخزانة المنصورية ملجأ كثير من كتبهم ، متاحة لعامة الناس .

الخزانة الحكمية ، أو خزانة القصر :

بعد تقلد الحكم المستنصر الثاني الحكم بعد والده سنة ٣٥٠هـ ، اهتم بالعلماء ، و أنشأ سبعاً و عشرين مدرسة للتعليم المجاني . و أقام سوقاً تجلب بضائعها من كل مصر ، و استغل الثروات في الإنفاق على الأبحاث و الكتب ، و بنى مكتبته الخاصة بإرسال الوكلاء إلى جميع بلاد المسلمين لشراء الكتب و جلبها للأندلس ، فجلب ما لم يُعهد من قبل ، و حوت مكتبته اربعمائة ألف مجلد .

و كان الوكلاء الذين يرسلهم يصادقون تجار الكتب ، فيدلونهم على أمكان وجودها ، و كانوا يشترون الكتب من مؤلفيها كما سبق مع أبي الفرج الأصفهاني ، و كان التجار ينتقون له غرائب الكتب .

و اجتمعت مكتبته من ثلاث مكتبات :

١ .مكتبة القصر : و هي مكتبة أبيه و أسلافه .

٢ .مكتبة أخيه محمد : الذي ورثه ، و قد مات شاباً .

٣.مكتبته الخاصة بالشراء و الاقتناء و الاهداء .

و كانت مكتبته تشغل إحدى أجنحة قصر الخلافة بقرطبة ، و كان يعرف بمكتبة الحكم ، أو مكتبة قرطبة الأموية . و ضاق القصر بالكتب ، و لم يعد يجد مكاناً لها ، فاضطر إلى نقلها خارج القصر ، فاستغرق نقلها ستة أشهر في عمل متواصل .

مصير هذه المكتبات

كان عصر الطوائف مؤذناً بزوال دولة الإسلام في الأندلس ، فقد تمكنت الولايات الإسبانية من البلاد ، و سادت الحروب الطاحنة و الخلافات ، مما كان له أثر في خراب البلاد ، و أثر على الإرث الذي كان بين أيديهم . و تعرضت الكتب إلى ثلاثة أشكال من الإتلاف :

١ .نهب الكتب ، و بيع بعضها : ذلك بسبب ضعف الأمن ، و انشغال الناس بالقضايا التي تتعرض لها البلاد .

٢ .التوزيع و نقل الكتب : من العلماء و الأدباء من خشي على كتبه فرأى نقلها من الأندلس ، إما إلى المغرب الأقصى ، أو المشرق الإسلامي .

٣.أحراق الكتب : و له أسباب ، منها :

الأول : التقرب من العلماء و عامة الشعب : من ذلك ما فعله مغتصب الحكم المنتصر بن أبي عامر ، الذي أمر بمكتبة الحكم فأخرج ما فيها من علوم الإغريق كما ادّعي ، و هي كتب الفلسفة ، و الفلك ، و المنطق ، فأمر بإحراقها ؛ ليجد مكانة في قلوب الناس .

الثاني : إحراق الكتب بسبب المعتقد الديني : استمر إحراق الكتب عدّة قرون ، حتى أصبح عيداً سنوياً عند الإسبان كما يقول (المستشرق خوليان) : (كان ذلك بفضل الحماس المتزايد في شعبنا) ، و ليس كذلك ، إنما لحقدهم على الإسلام .

الثالث : بسبب التعصب و طمس الهوية الإسلامية : أكبر أعمال الحرق و التخريب كان في باب الرملة في غرناطة برعاية من الدولة الإسبانية سنة ١٤٩٢م ، على الرغم من أن المعاهدة بين الأندلسيين و بين الإسبان تنص على أن لا تمس الكتب ، إلا أن (الكردنيال خمنيس) مطران طليلة جمع الكتب في ساحات غرناطة ، و احتفل بإحراقها في ميدان الرملة ، فبلغت مائة ألف مخطوط . و حريق آخر كان في سنة ١٥١١هـ بناءً على قرار (الملكة خوانا) التي أجبرت عرب إسبانيا بعد أن نصّرتهم قسراً على إخراج الكتب التي يحتفظون بها ، فأحرقتها .